

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

سمد زغلول خطيباً — الخطابة والحديث منذ جماعة من رجال هذا العصر : طه حسين ، عبد الطيب الصوفاني ، طي فهمي كامل ، عبد العزيز جويش ، مكرم هيبد ، مصطفى النحاس ، محمد حسين هيكل ، محمود فهمي النقراشي ، محمد محمود ، عبد الحائق ثروت ، حافظ عفيفي ، طلعت حرب ، حلمي همسي ، عبد الحميد بدوي ، طي ابراهيم ، نجيب الهلال ، ابراهيم مبد الهادي ، أحمد لطفي السيد .

عجب فريق من القراء من حكننا على الزعيم (سمد زغلول) خطيباً ، وهددنا أحد الرفاق الأضواء بكتابة فصل ينقض به حكننا من الأساس ، وعاتبني بمضهم على ذلك الحكم الصريح فقلت : إنما سجلت إحساساتي بصدق ، ولا موجب للواريه في الحكم على خطيب لم تكن الخطابة إلا عنصراً واحداً من عناصر كثيرة تألفت منها قوته الدائية ، فجدده لا يقف عند القول بأنه كان أخطب الخطباء .

عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور ، فقال الحامي وظن أنه يرضيه بما قال : يا باشا كلمة منك تبث فيه الحياة اللغوية . واسترسل في مثل هذا للكلام ، فنظر إليه سمد هنيهة ثم قال : ما هذا ؟ أريد أن تخطب ؟ أريد أن تتعمس ؟ طيب ... تفضل اخطب وتحمس وانتظر من يسمع

وكانت نفسه برمة جداً بمن يمشون بهذا الموضوع لأنه كان سهوماً به لا يطيق الهزل فيه . بل كثيراً ما سمعته يتضجر في تلك الأيام من حب التنكته في الطبيعة المصرية ويقول : لولا أن المصريين يضحكون من زبور وغرائبه لما احتملوه هذا الزمن للعاويل «

وبعد فإني أسجل هذه التعميمات على ما قرأت في فصول الثقافة وفي اعتقادي أن إخواننا الذين احتفلوا بذكرى الزعيم للمظيم يرحبون بما فيها من تصحيح لبعض الوقائع والأخبار ، إذ كانوا ولا ريب إنما يقصدون إلى تمحيص الحقائق عن ذكراه .

هباس محمد العقاد

وأواجه الموضوع مرة ثانية خدمة للتاريخ الأدبي فأقول : كان يهمني من عهد بعيد أن أدرس للمصر الذي أعيش فيه دراسة صحيحة ، وأن أزن المواهب عند من ألقبهم من أهل الفكر والرأي والبيان ، وقد يتفق أحياناً أن أشغل نفسي بدراسة الوجوه والملاحج ، وربما توغلت فدرست الصلوات المجهولة بين ما يُظهر للناس وما يُضمر ، فإن رأى بعض القراء خطأ في بعض ما أصدر من الأحكام الأدبية على أهل هذا الجيل ، فلا يرجع ذلك الخطأ إلى المسارعة في الحكم بلا روية ، وإنما يرجع إلى أني قد لا أوفق إلى الصواب مع الحرص الشديد على النظر والتدقيق

والحق أني مفتون بنفسي من هذه الناحية ، ولا أعترف بأنني قد أخطئ إلا تجنباً للوقوع في اللجاجة مع بعض القراء ، مع أني أومن بأن الكبير المطبوع أخف روحاً من المتواضع المصنوع . وأقول بمباراة صريحة إن التمييز اللساني له فنون ، وقد تدق الفروق بين تلك الفنون ، ثم تدق حتى يصبح من المسير أن نضع لها الموازين ، ومن هنا ينشأ الخلاف في الحكم على طبقات المتحدثين والخطباء

وأضرب المثل بالفرق بين المحاضر والخطيب ، فالفهم أن المحاضرة والخطابة فنان يقتربان أشد الاقتراب ، لأنهما في ظاهر الأمر يزجمان إلى أصل واحد ، ومع ذلك نرى للقدرة على المحاضرة والخطابة تفاوت أشد للتفاوت عند الرجل الواحد في بعض الأحيان

فالدكتور طه حسين محاضراً يُعد في الطبقة الأولى بين المحاضرين ، ولو راعينا أن الدكتور طه لا يستطيع أن يهبي كلاماً يأخذ بعضه برقاب بعض في دقائق تقارب الستين لجاز الحكم بلا مجاملة بأن الدكتور طه هو المحاضر الأول في هذا الجيل

ومالي لا أقول الحق كل الحق فأصرح بأنني لم أشهد في مصر محاضراً بمائل الدكتور طه في جهارة الصوت ونساعة الأداء ؟ ولكن طه حسين خطيباً مخلوق آخر : فهو في الطبقة الحادية والمشرية بين خطباء هذا الزمان ، وما سمعت الدكتور طه يخطب إلا أشقت عليه ، فمن السجيب أن الرجل الذي لا يتجسس ولا يتوقف وهو يحاضر قد يمرض لأبشع ضروب التي وهو

بمنف في المواطن التي تحتاج إلى تأكيد ، وكان يحفظ الأرقام
 مهما بمد عهدا في للتاريخ ، فلم يكن من الصعب عليه أن يذكر
 لليوم الذي وقع فيه حادث مأثور في أي عهد من العهود
 وقد حملته الثقة بالنفس على أن يتقدم للانتخابات في دائرة
 للسيدة زينب منافسا لازعيم سعد زغلول ؛ فلما واجهته في ذلك
 غضب وثار وأعلن أن انتصار سعد عليه أبعد تصورا من المستحيل
 والمهم هو النص على أن على فهمي كامل المحدث غير على
 فهمي كامل الخطيب ، لئلا ما بين الحالتين من العنف والطف ،
 والنفرة والطبع . ولم أشهد على كامل يرتجل الخطابة إلا مرة
 واحدة في نوفمبر سنة ١٩٢٠ وقد وقف بخطب على قبر محمد زويد
 وهنئ هاتف : يحيا سعد ؛ فاعتناظ الرجل واندفغ في تجريح سعد
 بقوة فهاره فرضت على السامعين أن يلوذوا بالصمت والخشوع ،
 في وقت لم يكن يجرد فيه أحد على أن يذكر سمدأ بنير الجليل
 أما الشيخ عبد العزيز جاويش فكان يلقى خطبه بأسلوب
 المدرس المتمكن ، وكان يناد عليه أن يرد يده إلى أذنه بصورة
 من يدعو فكره إلى التجمُّع ، وكان يهتف بكلمة « وى ! »
 حين يرى الماني تشرُّد أمام فكره للفنَّاس فتراجع إليه وهي
 أوانس خواضع !

وكان الشيخ جاويش حين يتحدث في لحظات للصفاء أحيانا
 من الفتاة البتول ، وكان لصوته في أوقات اللطف نبرات عذاب ،
 وكانت له ابتسامه حلوة إلى حد يفوق الوصف ، وكان لعينيه
 بريق جذاب ، فإذا غضب خديشه ونظراته رعد وبرق وصواعق
 كنت أدخل عليه في وزارة المعارف بلا استئذان ، وكانت
 للقرص كثيرة لمقابلته ، لأنه كان يكث في مكتبه كل يوم نحو
 عشر ساعات ، فيتقدي في الوزارة كيفما اتفق ، ويصل فيها للظهر
 والدمر والنرب ، وقد يحلوه الأانس بالواجب فيبقى في الوزارة
 إلى أن يصل المشاء

دخلت عليه مرة فوجدت عنده إنسانا منزويا في إحدى
 نواحي المكتب ورأيت للشيخ غضبان والشرر يتطاير من عينيه ،
 فسلمت تمليا مختصرا وجلست

وما هي إلا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه
 ذلك المجلس ، فقد صرخ :

يخطب ، فمن أين جاءت هذه الفروق بين الموقفين مع قرب الصلة
 بين موقف المحاضر وموقف الخطيب ؟

أرجع للسبب إلى أن الدكتور طه محدث بارع ،
 والمحاضرة فن من الحديث ؟

أم يرجع السبب إلى أن الدكتور طه يجري على فطرته
 وهو يحاضر فينحس له للقول ، ويتكاف وهو يخطب فيسمع
 « بزايا » المتكافين من الفضلاء ؟

هذا موضوع يصلح للدرس ، وهو من الدقة بمكان .
 وأذكر شاهدا آخر يوضح هذه القضية بمض التوضيح

كانت صحتي طالت لفقيد الوطنية والدين عبد اللطيف
 للصوفاني ، وكنت أراء أفتح للناس حين يدور الحديث حول
 الطالب القومية ، ثم منحت فرصة وجب فيها أن يقف ليخطب ،
 فرأيت لبسونا شاسعا جدا بين الصوفاني المحدث والصوفاني
 الخطيب ، ولعل شاعرنا شوق راعي هذا المعنى حين قال وهو يرثيه :

ما كان نسا ولا زيادا ولا بسحر البيان جاء
 لكن إذا قام قال صدقا وجانب الزور والرياء
 وعرفت خطباء لا يجيدون إلا حين يحفظون خطبهم من ظهر
 قلب ، ومن هؤلاء المرحوم على فهمي كامل الذي مات في رثاء
 شهيد الوطنية محمد فريد

وإنما قضيت بهذا لأنى سمته مرة يخطب نحو ساعتين بلا تلمع
 ولا تردد ، وكان ذلك في كاية ممعاني كامل في إحدى ذكريات
 الزعيم الأول ، وبعد انقضاء الاحتفال بوقت قصير ظهرت
 جريدة اللواء وفيها خطبة على فهمي كامل ، فرأيت للنص
 المكتوب عين النص المسموع ، بلا تقديم ولا تأخير ، وبلا زيادة
 ولا نقصان

ويؤكد من عرفوا الزعيم الخالد مصطفى كامل أنه كان
 يحفظ خطبه من ظهر قلب ، ويؤيد هذا خطبته التاريخية على
 مسرح زرينيا بالأسكندرية ، وهي أعظم خطبه ، وبها تخم حياته
 الخطابية ، وأسلوبها يشهد بأنه نظمها نظما ثم حفظها قبل أن
 يلقيها على الناس

فكيف كان على فهمي كامل وهو يتحدث ؟
 كان أمجوبة الأماجيب في قوة الأداء ، وكان يتابع أسنانه

« من يتزوج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون ألا يزور أوروبا إلا طار ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية ؟ إن الأتراك لا يتزوجون بناتنا غطرسة منهم وكبرياء ، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوجون بناتنا إلا في قليل من الأحوال

فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوارج ، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجبال وأدب النفس ؟ وما الذي يهرك من الفتاة الأوربية حتى تنسى بها بنت وطنك ؟ ومتى بصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن وقد حرمكم الله نعمة الوطنية ؟ »

وخرج الشاب وهو آسف . وكانت لحظة صمت توهمت فيها معنى للشيخ جاويش منورقتين بالسمع ، فطلب فنجان قهوة ، ثم تكلف الابتسام ، وقال : « لا تؤاخذني ، فذاك فتى كان أبوه من أعز أصدقائي ، وما كنت أحب أن ينسأخ من وطنه بالزواج من امرأة أجنبية »

ومع أن المسألة فيها نظر ، ومع أني كنت أراجع الشيخ في كثير من الشؤون ، فقد تخوفت عواقب غضبه إن راجسته في ذلك الشأن الدقيق ، ثم انصرفت وقد عرفت أن الشيخ لا يرق ولا يلفظ إلا في ساعات الصفاء ، وأنه أخطب ما يكون وهو غضبان

أما مكرم باشا عبيد فلم أسمه بخطب إلا في الحفلات ، وهو يحفظ خطبه عن ظهر قلب

وقف بخطب في ذكرى ١٣ نوفمبر أيام الائتلاف ، وبمد مدة تزيد على عشر دقائق دخل عدلى باشا يكن ومعه جماعة من الوزراء ، فرجع مكرم باشا إلى مطلع الخطبة من جديد فأعادها حرفاً حرفاً بلا تغيير ولا تبديل

أما مكرم باشا محدثاً فلم أعرفه إلا في لحظات قضيتها معه بشارع ريفولي في باريس سنة ١٩٢٩ ، وهو يقبل عليك حين يحدثك إقبال من يهمة أن يظفر بفتنك ، فيترقب ويتلفظ ، وينقل من فن إلى فنون ، وهو في جميع أحواله خفيف لفظ والروح ولم أسمع مكرم باشا وهو يرتجل لأعريف للفرق بين حالته في الأداء ، ولكن من المؤكد أن حالته يختلفان بسبب غرامه

بالزخرف والتمنيق ، ومن كان كذلك فأسرته في الروية غير أسره في الارتجال

ولم أسمع النقراشي باشا خطيباً ، ويقول الذين سمعوه إنه ليس من الخطباء

أما النقراشي المحدث فهو آية في حلاوة التعبير وسلامة المنطق ، على شرط أن يكون الحديث في داره لا في وزارة المعارف أو وزارة الداخلية

وهو مرهف العقل حين يتحدث ، ولكلامه مذاق خاص لأنه لا يتكلم إلا وهو مبتسم ، وقد تعجب حين يجادلني بأن يكون لثله أعداء ، لأنه ينقل أحاديثه عن قلب يفيض بالشهامة والصدق والإخلاص ، وإن كثرت القبول بأنه منطوور على المنف والاعتصاف

والنحاس باشا خطيباً لا يرضيني ، وإن كنت أول من تنبأ بأنه سيكون خليفة سعد ، يوم رأيت بصاويل زغلول باشا في مجلس النواب ، وكنت مضيت مع الأستاذ محمد المهياوي لشهود بعض المواقف المهمة قبل أن يموت سعد بمامين

والسبب في خطابة للنحاس باشا يرجع إلى الأداء ، لأنه يؤدي الممانى بأسلوب رتيب ، ولا يفرق بين مقامات الكلام إلا في قليل من الأحيان ، ولو جاز أن تقدم نصيحة لرجل في مثل مراكز النحاس باشا لرجونه أن يرجع إلى باب من أبواب العربية اسمه الوقف ا

أما النحاس باشا متحدثاً فهو على جانب عظيم من الجاذبية في أوقات الصفاء ، فهو يرسل اللكنة المستمدية بلا تكلف ، وهو لكرم طبعه يُنسيك أنه من الزعماء ، وهو أولاً وآخرأ رجل له قلب ، على قلة أرباب القلوب في هذا الزمان

فإن تحدث النحاس باشا وهو غضبان فلا تعجب حين يقع منه ما لا يرضيك ، لأن الغضب يحوّله إلى رجل ينكر أن في الدنيا كلاماً يقال وكلاماً لا يقال ا

أما موهبة هيكل باشا خطيباً فليست بشيء بالإضافة إلى موهبته في الحديث

يحدثك هيكل باشا وهو « ابن بلد » فتستظرفه إلى أبعد الحدود ، لأنه من هذه الناحية موهوب . فإذا خطب وأراد أن

ولا أعرف أين يقع مكان نجيب بك الهلال بين الخطباء ،
ولكني أعرف أنه محدث ظريف
أما حلى باشا عيسى ، فهو قبض من الفتوة والفتوة حين
يتحدث ، وإن كنت لم أرض عن أسلوبه الخطابي حين سمعته
في مجلس النواب ، ولعل ذلك لأن موقفه كان موقف المقرر
لا موقف الخطيب ؛ والأستاذ إبراهيم عبد الهادي كان من خطباء
الثورة المصرية ، وكان يومئذ فصيح اللسان ، وكان صدرى
ينشرح حين أراه على حدائه سنة ينسأى إلى منازل الخطباء للقضاء
في تحيير اللفظ للفخم والمعنى الواج ، ثم ضاق به صدرى حين
سمعته يخاطب في مسرح الأزيكية بمد الثورة بأعوام ، فقد سلك
في التحريض على أعضاء الحزب الوطنى مسلحا غير مقبول ، ومع
ذلك كان يستنفر الجمهور بشواهد من القرآن والحديث | |
وكذلك انصرفت عنه وانصرف عني فلم تكن تبادل
التحيات إذا التقيت مصادفة في الطريق ، ثم تمارفنا بمد طول
التناضى حين تلافينا في المفوضية المراقية منذ أكثر من شهرين
فكيف صار إبراهيم عبد الهادي الخطيب ؟ أهو كهدى به قبل
عشرين عاماً حين كان يرصع خطبه بالحكم والأمثال والآيات
والأحاديث ؟ أم تكون الدنيا راضية على فنون من سرعة القول
وبدبها الارتجال ؟
يشهد ما أقرأ من خطبه المنشورة أنه لا يفرق كثيراً بين
مقامات الكلام : فهو يخاطب في مجلس النواب كما يخاطب
في الحفلات ، مع أن للفرق بين المقامين بعيد . فإن سنتحت فرصة
لشهوده خطيباً ومتحدثاً فقد أرجع إلى هذا الرأي بشيء من
التعديل ، ولكن ما أهمية الخطابة والحديث في حيوات الرجال ؟
لذلك أهمية عظيمة جداً ، فاستاذنا أحمد لطفى السيد باشا
مدين مواهبه في الحديث أولاً وفي الخطابة ثانياً ، وأكاد أجزم
بأنه يراعى للتعبير كلما تحدث ، ولو كان الحديث أمراً بتقديم
القهوة للضيوف ، وللحديث عنده ألوان : فهو تارة بالمامية
للشراوية ، وتارة بالنصحى البدوية ، تبعاً لاختلاف المقامات ،
ولهجته البلدية هذبة حلوة تقع من آذان السامعين أجل موقع ،
فاذا بدا له أن يُغرب فهو أعراي من مجاهيل الليداء ، وهو
في حاله يتكلم بصوت رنان يذكر بالخان يوسف المنيلوى ،
إن رضى عن هذا الوصف

يكون « ابن بلد » ضاقت به نفسك ، لأن الخطابة لها وقار
لا يسمح بالمبارات للبلدية ، وقد يمدّها من الابتذال
وبروعك من هيكل باشا صفاء عينيه حين يتحدث ، حتى
لتكاد تجزم بأنه للشاب الذي ترفق فأشار في كتابه عن
« جان جاك روسو » إلى أنه كان من أهل الفتون يوم كان
طالباً في باريس . أما مقام هيكل باشا في الصحافة والتأليف
فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، لأنه في هاتين الناحيتين
من أقطاب هذا الجيل
أما زعيم الدستوريين محمد باشا محمود ، فلم أشهده خطيباً
إلا مرة واحدة في الخطبة التي قال فيها وهو غضبان :
« زيد أن نعرف لمن الأمر اليوم : ألسعد أم للأمة ؟ »
وكنت سمعت أنها عرضت قبل إلقائها على الدكتور طه حسين
والمهدة على الشخص الذي صحب الدكتور طه أيام سكناه بهي
قصر النيل ، فهو الذي زعم في جريدة « الإنذار » أن الدكتور طه
هو الذي أنشأ تلك الخطبة للتاريخية
والذي يرى محمد باشا محمود وهو يتحدث يؤمن بأنه من أفراد
الأدباء في اللغة للمربية ، وكيف لا يكون كذلك وهو من أسلم
للناس ذوقاً في الحكم على الأدب القديم والحديث ؟
ولم يكن صوت ثروت باشا في الخطابة بالصوت المقبول ،
كان صوته لونا من (المرصعة) ، وكان يقرأ خطبه في أوراق
مكتوبة بطريقة تشهد بأنه يخشى عادة اللحن والتصحيح
وأعظم خطب ثروت باشا هي خطبته في الرد على معارضيه
سنة ١٩٢٢ ، وقد صححها الرحوم محمد الرصفي ، فشهد التصحيح
بأنها استهدفت لطفيان قلبه البليغ
أما ثروت باشا المحدث ، فكان من الآيات في عدوية الروح
وقد استطاع بلباقته أن يسيطر سيطرة روحية على الزعيم سعد زغلول
قبل رحيله عن هذا الوجود ، فلما وقف يرئ سمداً بعد ذلك ، قهره
للقلب الطيب على أن يضيف إلى خطبته سطوراً من الدمع المسكوب
ولم أسمع حافظ باشا عفيفي وهو يخاطب ، أما أسلوبه في الحديث
فقد بهر قلبي وعقلي
وظلمت باشا حرب ليس بخطيب ولم يخلق للخطابة ، وهو
مع ذلك محدث جذاب ، وحاله في ذلك يشبه حال الدكتور على باشا
إبراهيم ، أو حال عبد الحميد باشا بدوى